الفصل الثاني والعشرون

أبو الوفا التفتازاني

رائد التصوف الإسلامي المعتدل

الفصل الثاني والعشرون

أبو الوفا التفتازاني
رائد التصوف الإسلامي المعتدل

أولاً: مكانته الفكرية:

يُعد د. أبو الوفا التفتازاني شخصية متفردة بين أبناء جيله من أساتذة الفلسفة في مصر المعاصرة؛ حيث كان هذا المفكر الصوفي الجليل شيخ الطرق الصوفية والنائب الأسبق لجامعة القاهرة قد حقق بحياته وكتاباته معادلة صعبة يستحيل تكرارها في زماننا هذا؛ فقد كان من القلائل في تاريخ الفكر العربي والعالمي الذي عاش فلسفته بحق. فقد كان زاهداً رغم ثرائه، عقلانيا رغم أنه كان شيخا للطريقة الغنيمية الصوفية التي ورثها عن والده، كما كان شيخا للطرق الصوفية ردحا كبيرا من الزمن حتى وفاته.

وعادة ما يقفز إلى ذهني حينما أتذكره مقالة الفيلسوف الانجليزي الشهير برتراند رسل «التصوف والمنطق»، تلك المقالة المطولة التي كتب فيها أن ثمة فلاسفة قلائل في تاريخ الفلسفة أمكنهم الجمع بين النزعة الصوفية والنزعة العلمية ورأى في هذا الجمع بين التصوف والمنطق سمواً فكريا جعل من أصحابه فلاسفة بالمعنى الصحيح، وقد ضرب رسل المثل على هؤلاء الفلاسفة بهيراقليطس وبارمنيدس وأفلاطون من فلاسفة اليونان القدامى. وأحسبني لا أبالغ ان قلت أن د.النفتازاني كان رائداً من هؤلاء المفكرين الذين جمعوا ببراعة منقطعة النظير بين هاتين النزعتين، النزعة الصوفية والنزعة العلمية في حياته وفي كتاباته.

ثانياً: نبذة عن حياته ومؤلفاته

فـإن نظرنا في حياتـه لوجدنا أنه ولد في الرابع عشر من أبريـل 1930 بقرية كفر الغنيمي بمحافظة الشرقية لأسرة ريفية يتزعمها والده الشـيخ الغنيمي التفتازاني (1893 - 1936م) الذي كان شـيخاً لطريقة صوفية شـهيرة هى الطريقة الغنيمية وكان صديقاً لواحد من ألمع أسـاتذة الفلسفة الإسلامية وأعلامها ومؤسس مدرستها الحديثة في مصر هو الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكانت هذه النشأة الريفية في هذه البيئة الصوفية الداعية إلى العلم والمتحالفة مع العلماء أثرها البالغ على توجهه إلى الدراسة بالمدارس الحكومية ثم الالتحاق بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة لدراسة الفلسفة على وجه الخصوص ثم التخصص في مجال الفلسفة الإسلامية والتصوف بوجه خاص. وقد أتم دراسـته بتفوق شـهد به أسـاتذته وقد كانوا معظمهم من الأسـاتذة الأجانب، فقد درس على يد أميل بربيه و لالاند وربي و أسرتبيه و روجييه و بوابيه، أما الأسـتاذ العربي الوحيـد فكـان عميد الأدب العربي د. طه حسـين الذي كان يدرس لهـم الأدب العربي وانضم إليه في مرحلة لاحقة من أساتذة الفلسفة الشيخ مصطفى عبد الرازق ثم تلميذه محمد مصطفى حلمي وكان من بين أسـاتذته في نفس القسـم د. عثمان أمين و د. أحمد فؤاد الأهواني ود. محمد عبد الهادي أبو ريدة.

وكـان لـكل هؤلاء أثرهـم الواضح في تكويـن فكره الـذي جمع في طياته بـين الإعجاب بالفلسـفة الإسـلامية وخاصة في جانبها العرفاني الصوفي وبين العقلانيـة المنطقية التي حرص على بثها فيهم هذا الجمع من الأسـاتذة الأجانب بالإضافة إلى عقلانية طه حسـين وعثمان أمين وهما معاً كانا تلاميذ المدرسة الديكارتية ومن المروجين للعقلانية الديكارتية في الأدب العربي والفلسفة العربية الحديثة. وبحصول د. التفتازاني على ليسانس الفلسفة بتقدير جيد جداً عام 1950م تنتهـي المرحلة الأولى من حياته وهى مرحلة النشـأة والتلمذة لتبدأ مرحلة جديدة من حياته العملية هى مرحلة البحث العلمي المتقدم والأسـتاذية، حيث عين معيداً بكلية الآداب عام 1952م وتدرج بالوظائف الأكاديمية بالقسـم والكلية حتى عين وكيلاً للكلية عام 1978م وفي ذات الوقـت انتدب للإشراف على عمادة كلية التربيـة بالفيوم ثم عين نائباً لرئيس جامعة القاهرة لفرع الفيوم وبني سويف عام 1981م ثم استقل بفرع الفيوم منذ عام 1983م ،ثم أصبح نائباً لرئيس الجامعة للدراسات العليا والبحوث عام 1984م. وفي ذات الوقت تشعبت اهتماماته

البحثية والعلمية فأصبح شيخاً لمشايخ الطرق الصوفية منذ عام 1983م إلى جانب عمله كنائب لرئيس جامعة القاهرة، وكذلك انتخب رئيسـاً للجمعية الفلسفية المصرية عام 1988م، وتعمق تأثيره في تلاميذه بتدريس مواد الفلسفة الإسلامية والمنطق الحديث والتصوف الإسلامي. ولك أن تتوقف لحظة للتأمل كيف درس الفلسـفة الإسـلامية وعلم الكلام والتصوف الإسلامي إلى جانـب تدريـس المنطق الحديث بجامعة القاهـرة على ما في ذلك من ما يبـدو في ظاهره بعض التناقـض، فهـو لم يدرس المنطـق الصوري القديم، بـل المنطق الحديث. وذلـك مما يؤكد حبه للمغامرة البحثية وعقلانيته المنطقية رغم عشقه للتصوف الإسلامي ونزعتة الصوفية الواضحة التي تجلت في إعادة الاعتبار للطرق الصوفية في مصر وتوجيهها نحو التأثير الإيجابي في المجتمع المصري بعد أن كانت شـيعاً متفرقة يغلب عليها في الممارسـة الصوفية المظهرية والخرافة. لقد اكتسبت مشـيخة الطرق الصوفية في مصر والعالم العربي بُعدا علميا وأكاديمياً وتأثيراً قوياً في الحياة الاجتماعية برئاسته لها. وهو البُعد الذي ربما غاب عنها منذ رحيله في عام 1994م.

إن هذا البُعد العلمي والأكاديمي الذي أضفاه د. التفتازاني على التجديد في ممارسات الطرق الصوفيـة لم يكن إلا تتويجاً لدراسـات وأبحاث هامة قام بها وبـدا فيها بوضوح قدرته الهائلة على الربط بين دراستة للتراث الفلسفي الإسلامي الصوفي من جهة وبين علوم العصر الحديث من جهة أخرى وتجلى كل ذلك في كتاباته؛ ففي الوقت الذي كان يؤسـس ويوصل فيه للدرس الصوفي في مصر عبر كتابه الشـهير «مدخل إلى التصوف الإسـلامي» وكتاباته عن «ابن عطاء الله السـكندري وتصوفه» و«ابن سبعين وفلسفته الصوفية» وعشرات المقالات والدراسات عن أعلام الصوفيـة ومصطلحات الصوفية والطرق الصوفية في مصر والعالم الإسـلامي، كان في ذات الوقـت معنيـا بالتأسـيس العقلي لعلم الكلام وبعض مشـكلاته ويكتب عن فلاسـفة الإسـلام والعقلانيـون منهم عـلى وجه الخصـوص مثل ابن طفيـل وأخوان الصفا وابن رشـد. ومـع هذا وذاك بدأ يربط بين هذه الدراسـات التراثية وان كتبت بمنهج عقلاني حديث وبين المشـكلات المعـاصرة حيث كتب عن الإسـلام والفكر الوجودي المعـاصر، وعن العلاقة بين الفلسفة والطب عند المسلمين، وعن مفهوم العلم في الإسلام وعن المنهج الإسلامي في تدريس الفلسـفة الأوربية الحديثة والمعاصرة. وكم كان لهذه الكتابات من تأثير واسع على جيل كامل من الدارسين للفلسفة في مصر والعالم العربي والإسلامي.

ثالثًا: القدوة والمثل بين زملائه وتلاميذه

و إذا كانت كتاباته ذات أثر واسع في تشكيل مدرسة الصوفية وتابعية الذين ذاع صيتهم و إن قلوا، فإن تأثيره الأكبر كان بكونه القدوة في العلم و السلوك، فقد كان أدبه وتواضعه الجم ودماثة خلقه مع غزارة علمه وتدقيقه فيه مما يعجز القلم عن وصفه حيث كان شديد السماحة خفيض الصوت حتى في محاضراته، يقصده كل صاحب مصلحة فيقضيها له دون ضجيج أومن، يتجه إليه المتخاصمون فيخرجون وقد أحب كلا منهم الأخر فقد أضفى عليهم بهدوئه وصفاء روحه ما جعلهم يزهدون في صخب الدنيا طامعين في طلب المغفرة والصحبة في الحياة الأخرى. لقد كان خلقه القرآن كقدوته الأعظم محمد ﷺ، يمشي بين الناس داعيا لكل خير، رافضاً أن يكون طرفاً لأي خصومة، يحنو على تلاميذه رغم جفوتهم، يعطف على الصغير والكبير و يعامل الجميع بنفس الطريقة لا يميز بين فقير وغني، أو بين صاحب منصب أو فاقد له.لقد كانت دعوته دائماً إلى المحبة والسلام بين الجميع.

إنه الذي علمنا أن التصوف الحق هو الذي يبدو في السلوك والعمل وأن الزهد لا يكون إلا زهداً فيما تملك، وأن المسلم الحق هو الأحرص على مظهره كحرصه على صفاء روحه وأداء شعائره، وأن الإقناع لا يكون بعلو الصوت بل بالمحبة والبرهان، وأنه كلما قويت حجتك كنت هادئاً خفيض الصوت قادراً على التعبير عما تؤمن به وقادراً على إقناع الآخرين به. وقد كانت كل هذه السجايا والخصال هى طريقه إلى قلوب الناس وعقولهم، كما كانت طريقه إلى الإسهام الجاد في عضويته في لجنة تبادل القيم التابعة لليونسكو، وعضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضوية جمعية الفلسفة في العصور الوسطى ببلجيكا، كما كانت هي مبرر حصوله على تكريم الدولة ممثلة في رئيسها وحكومتها بمنحة جائزة الدولة التشجيعية عام 1975م و منحه جائزة الدولة التقديرية عام 1985م.

و إذا كان تلاميذه ومحبوه لايزالون عارفين بفضله ومتأسين بحياته ومنهجه الصوفي الإسلامي المعتدل، وعاكفين على النهل من مؤلفاته في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام والتصوف الإسلامي، فإن دارسي الفلسفة في الوقت الحاضر قد لا يعلمون أنه صاحب رؤية جديدة ومنهج فريد دعي إليه في تدريس الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة.و إني لأعتقد ان

الإحيـاء الحقيقي لأرائه وأفكاره لا ينبغي أن يقتصر على رؤيته الصوفية، بل من الضروري أن يمتد لإدراك معالم هذه الرؤية الجديدة في تناول الفلسفة الأوربية وتطبيق المنهج الذي اقترحه في تدريسها والكتابة فيها.

رابعاً: رؤيته لعلاقة الفلسفة الاسلامية بالفلسفة الأوربية

وأول معالم هذه الرؤية يتمثل في ضرورة الربط في التدريس بين الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة وبين الإسلام وتراثه الفلسفي بحيث نتجنب اعتبار أي من هاتين المادتين كافياً بذاته أو لا علاقـة لـه بالأخر؛ فالعلاقة بين الفكر الإسـلامي والفكر الأوربي ثابتـة تاريخياً وعطاء الأول للثاني لا ينكر، وثانيها أنه من الضروري دائماً تتبع الأصول الإسلامية للفلسفة والعلم في أوربا الحديثة والمعاصرة وذلك لبيان أن النهضة الأوربية خصوصاً في ميدان العلوم التجريدية ومناهجها لم تكن لتتحقق إلا عن طريق جهود فلاسـفة الإسـلام وعلمائه وانتقال تراثهم إلى الغـرب اللاتيني منذ القرن الثاني عشر الميلادي حين نشـطت حركة الترجمة للكتب الفلسـفية والعلمية العربية. وثالثا: يجب عدم تطويع الإسـلام لأي مذهب فلسفي باسم التحديث، كما يجب إخضاع مشـكلاتنا المعاصرة لمبادئ الإسلام وأسسه وروحه لأن الإسلام وحي ثابت وما عـداه من أراء البشر حادث ومتغير ولا يجوز إخضاع ما هو ثابت لما هو متغير. رابعاً: ضرورة التأكيـد عـلى أن الفلسـفات الأوربية المعتـدة بالعلم الطبيعـي وحده ومناهجـه متعارضة مع الإسـلام وليس التعارض بين العلم الطبيعي والإسلام وإنما بين فلسفة العلم في الغرب والإسلام وهى تلك الفلسفة التي آفتها إبعاد فكرة الإله الخالق عن ميدان البحث وحصر اليقين في دائرة الحس. والدليل على أنه ليس ثمة تعارض بين العلم الطبيعي والإسلام أن العلم الطبيعي ينظر إليه في الإسلام على أنه العلم بمخلوقات الله، وهو يقودنا إلى العلم بالله فلا تعارض إذن بين العلمين؛ إذ كلما كانت معرفتنا بالمصنوعات أتم كانت معرفتنا بالصانع تعالى أتم وأكمل على حد تعبير ابن رشد في كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال».

خامساً: ضرورة تدريس مذاهب الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة

على أساس إبراز مدى نجاحها أو إخفاقها عند التطبيق العملي لها في المجتمعات التي ظهرت

فيها. فهذا من شأنه أن يكشف عن مدى بعدها عن تحقيق الخير الأقصى للإنسان ويوضح مدى ما تحدثه في تلك المجتمعات من انحلال خلقي أو تمييز عنصري أو تحلل اجتماعي.. الخ.سادسا: أنه يجب في كل الأحوال تمكين الطالب الجامعي من المعرفة الموضوعية بالمذاهب الفلسفية الأوربية الحديثة والمعاصرة وتعويده على نقدها على أساس منهج العقل ثم تمكينه من نقدها وتقييمها على أساس من عقائد الإسلام وشريعته وقيمه الخلقية وذلك ليتحقق الطالب من أن الإسلام قادر على مواجهة فكر العصر وتجاوزه إلى ما هو أفضل وأكمل. ولنا في تجربة الإمام الغزالي والإمام ابن تيمية وغيرهما المثل والقدوة في ذلك.

وقد اعتبر د. التفتازاني أن هذه الأسس إذا روعيت في تناولنا للفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة كفيلة بأن تدرأ خطر الإلحاد وذوبان شخصيتنا في شخصية الغير فضلاً عن أنها تحول بين شبابنا وبين ذلك الإعجاب الشديد بالفكر الغربي. ولم تتوقف رؤيته عند هذا الحد، بل تعداها إلى تقديم اقتراحات محددة تتعلق بالوسائل العلمية لتحقيق عناصر هذه الرؤية، ومن هذه المقترحات أن يوجه البحث في مرحلتي الماجستير والدكتوراه في ميدان الفلسفة الحديثة والمعاصرة وجهة إسلامية بحيث يقوم الأساتذة المشرفون على الأبحاث بتوجيه طلابهم إلى ضرورة تتبع المصادر الإسلامية للفكر الغربي وعقد الموازنات بينه وبين الإسلام وقيمه ومبادئه وتراثه الفلسفي والحضاري. ومنها أيضاً أن ترصد جوائز ومكافآت مجزية للدراسات الفلسفية التي تحقق ذلك. كما قدم في إطار ذلك اقتراحاً بإنشاء معهد لدراسة الفكر الأوربي الغربي تكون مهمته البحث العلمي فقط ويهدف إلى دراسة هذا الفكر من وجهة نظر الإسلام في مختلف مجالاته وتكون فيه شعبة لدراسة المذاهب الفلسفية وأخرى لدراسة علم النفس وثالثة لدراسة علم الاجتماع ورابعة لدراسة علم الاقتصاد وخامسة لعلوم السياسة.. وهكذا على أن تقوم الجامعة التي ينتمي إليها هذا المعهد بنشر مؤلفات الباحثين فيه وترجمتها إلى بعض اللغات الأوربية حتى تعم فائدتها وتحقق الأهداف المرجوة منها.

والحقيقة أنه إذا كان قد تم بالفعل الاستفادة من المقترحين الأولين، فإنه لم يتم بعد الاستفادة من المقترح الأخير الخاص بإنشاء معهد لدراسة الفكر الأوربي. ولعله قد آن أوان تأمل هذا الاقتراح من كافة جوانبه والعمل على تنفيذه، فضلاً عن أن تأمل الرؤية الإسلامية التي قدمها

في منهجية التعامل مع الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة بشكل عام مسألة أصبحت ضرورية في ظل الدعوة المعاصرة لحوار الحضارات في عصر العولمة الذي نعيشه.

إن الأفكار والرؤى هى التي تخلد صاحبها، وقد ترك لنا د.التفتازاني تراثاً فكرياً مليئاً بالأفكار والرؤى العصرية التي يمكن الاستفادة منها عبر الأجيال. وما علينا فقط إلا أن نعيد قراءة مؤلفاته وأبحاثه لنستلهم منها الكثير مما يمكن الاستفادة منه وتطبيقه ليس في مجال الفكر النظري المجرد فقط، بل أيضاً في حياتنا العملية. فقد كان رحمه الله قدوة تحتذي في الفكر والعمل. وما أحوجنا وما أحوج شبابنا لمثل هذه القدوة في حياتنا المعاصرة.

أهم المصادر والمراجع

د. أبو الوفا التفتازاني:

- علم الكلام وبعض مشكلاته، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1979م.
- الانسان والكون في الاسلام، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1975م.
- مدخل إلى التصوف الاسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة - 1979م.
- ابن سبعين وفلسفته الصوفية دار الكتاب اللبناني ببيروت1973م.
- منهج اسلامي في تدريس الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة في الجامعة، بحث ألقاه فى مؤتمر التراث والمعاصرة بجامعة المنيا 1984م.
- ابن عطاء الله السكندري وتصوفه، مكتبة القاهرة الحديثة بالقاهرة 1985م.

- الكتاب التذكاري: أبو الوفا التفتازاني أستاذا للتصوف ومفكرا اسلاميا، دار الهداية، القاهرة 1995م.